

نامق سلطان

قريباً من الأرض

قريبا من الأرض

**اسم الكتاب: قريبا من الأرض**

**اسم المؤلف: نامق سلطان**

**تصميم الغلاف: سماري إبراهيم**



**دار نون للطباعة والنشر والتوزيع**

**© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف (الطبعة الاولى) لعام ٢٠٢٠**

**ISBN: 978-9922-9352-1-8**

**الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف**

**E-mail [muhammedyounes518@gmail.com](mailto:muhammedyounes518@gmail.com)**

**هاتف +964 773 455 2537**

# قريباً من الأرض

نامق سلطان



## تساؤل

هل كان عليهم  
أولئك الذين اختلفوا  
على طينة الخلق  
أن يدفعوني من أعلى الجبل  
كي يثبتوا للعالم  
أنني لست مخلوقاً  
من زجاج؟

## الوجهُ الثاني

هناك وجهٌ آخر لما يحدث  
يمكنُ أن لا تراهُ أبداً  
وقد تراهُ متأخراً جداً  
بعد أن تنمو للمكيدةِ أجنحةً  
وتطيرَ بعيداً مثل بعوضةٍ  
مخلفةً في أذنيك طينياً  
وفي رأسك ثقباً  
ينزفُ منه اليقين.

## المغفلون

نحتفي بصيادين  
يأتون من جُزرٍ بعيدةٍ إلى سواحلنا  
يجنون صيداً وفيراً  
ويعودون فرحين إلى ديارهم ...  
في اليوم التالي نستمهم  
فقد أخذوا أشياءً كثيرةً  
لم نكن ندري أنّها ثمينة.

## حديثُ الطين

بُلْغَةٌ بَسِيطَةٌ

يَفْهَمُهَا طِفْلٌ

يَرْكُضُ حَافِيًا فِي دُرُوبِ الْقَرْيَةِ

مِنَ أَوَّلِ الْمَطَرِ إِلَى آخِرِهِ،

سَأَحَدُتْكَ عَنِ الطِّينِ.

## عندما تكونُ وحدكَ

أشياءَ كثيرةً تطوفُ حولكَ

بعضها يجعلكَ تبتسمُ،

بعدها بقليل،

تهمهمُ جُملاً ناقصةً

ثم تنتبهُ إلى صورةٍ معلقةٍ على الجدار.

الصورةُ لصبيٍّ يبتسمُ هو الآخر

ربّما من أجلكَ

أو من أجل السنين التي أمضاها

وهو يحاولُ أن يمسحَ آثار حربٍ سابقةٍ

من عينيه.

\*

عندما تكونُ وحدكَ

أصدقاءُ كثيرون يزورونك

يرمقونك فقط

ولا يقولون شيئاً،

عليك أن تتذكرَ أنّهم كانوا يشبهونك

إبتسم لهم مرّةً أخرى

ستكون المائدةُ جاهزةً

والليلُ طويلاً، كما هو دائماً

وفراشاتُ الليل تحوّم في فضاءِ الغرفة  
مع الدخان والأحلام الباهظةِ  
والأغاني التي تولدُ من جديد.  
ربما هم الآن يجلسون وحيدين  
ودونما سببٍ يتذكرونك،  
ويبتسمون.

\*

عندما تكونُ وحدكُ  
لا تكونُ  
وحيداً.

## نافذة عالية

بعد أن تنطفئ الأضواء  
ويستقرّ المساجين على أسرّتهم  
تبقى نافذة واحدة في القلب  
صغيرة وعالية  
أحياناً يطلُّ منها قمرٌ شاحبٌ  
وغالبا، تدخلُ الحشرات وتخرجُ  
بحريّةٍ فائضةٍ  
بينما الأغاني القديمةُ  
تسيلُ على الجدران  
مثل أملٍ ضعيفٍ.

\*

لا شأنٌ للحظّ بذلك  
هنالك أخطاءٌ تقودُ الطيور إلى الأقفاص  
والثعابين إلى أغصان الأشجار  
في حديقة بيتك.

\*

التفاصيلُ أيضاً ليست مهمةً  
صفحاتٌ كثيرةٌ دُوّنتُ في التحقيق  
وفي المرافعات

بعد أن عبثَ الجناةُ بالأدلة  
بينما الأبرياءُ يركبون قواربَ مستهلكةً  
للنجاة بأنفسهم من العدالة.

\*

أمامك أمرٌ واحدٌ تقوم به كي تنجو  
أن تبقى جديداً دائماً  
مثل إثمٍ يُرتكبُ كلَّ يومٍ.

## الأيامُ الأخيرة

عندما أتقاعدُ غدًا  
سأفرغُ حصّالتي،  
لن تكون خاليةً، على أية حال  
فهناك سنواتٌ قضيتها في ترتيب حديقةٍ  
وعربةٍ مكلّلة بزهور، يجرها حصانان  
وسريرٍ يطفو على ماء بحيرة  
وأشياء كثيرةٌ نسيتها عندما داهمتني شكوكُ  
بأنني عشتُ حياتي منفيًا في مسقط رأسي  
ومطارداً في الوظيفة  
ولم أحصل على ما يثبت أنني نجوتُ بأعجوبةٍ  
في آخر فيضان أغرق الوادي  
والمدينَ التي نبتت على ضفافه  
قبل خمسين عاماً.

\*

أصدقاءٌ كثيرون تعبوا في الطريق  
وتهدّمت أكتافهم من ثقل الأحلام  
مع أنها صغيرةٌ  
ولم يصلوا حدودها بعد.

\*

وهناك الوجوه المرتابة التي كانت تطلّ  
من النوافذ الضيقة في دوائر الجوازات  
وفي المنافذ الحدودية  
عندما كنتُ أقفُ أمامهم  
ويداي خاليتان، إلا من مجلّة  
أو كتاب.

\*

هناك أيضاً كميةً كبيرةً من الأدوية  
كلها لم تعد صالحةً لترميم كسور القلب  
أو لترطيب الروح التي تيبست  
تحت أمطار الحروب ...  
سيبقى منها عكازٌ واحد  
وشبكةٌ معدنيّةٌ في الشريان  
سأكرس ما تبقى من العمر  
لحمايتها من الصدأ.

## مريمُ ترسم

ما الذي خلف الجبل؟

- لا أعرف ...

ربما قمرٌ هاربٌ من النهار

ربما بحيرةُ أسماكٍ ملونةٍ

أو بساتينُ تينٍ بريّ.

لكنّ المؤكد أنّ هناك جبلاً آخر،

وآخر ...

وما الذي خلف الجبل الآخر يا مريم؟

- أصواتُ رصاصٍ ودخانٌ ...

أهذه طائراتٌ أم طيورٌ في الأفق؟

كلها تبدو سوداءً من بعيد

- الطيورُ لا تحجمها الغيومُ، يا أبي.

إذن، أرسى غيوماً كثيرةً

لا أحبُّ الطائراتِ

ولا أصواتَ الرصاصِ

أرسى أشجاراً على السفح

وطيوراً قريبةً منها

وماءً ينسابُ من نبعٍ قريب

وصبيبةٌ تقودُ بقرةً من الحقل

قبل سقوطِ المطر  
أرسي بيوتاً كثيرةً  
واتركي نوافذها وأبوابها مفتوحة  
النساءُ يجلسن على عتبات الأبواب  
ماذا ينتظرن يا مريم؟  
- الرجالُ لم يعودوا بعد  
إنهم بعيدون  
بعيدون جداً  
والوقت ما زال عصراً  
حتى أنّ سطوح البيوت ما زالت تلمعُ  
تحت ضوءِ الشمس الذي يسقطُ عليها  
من خلال الغيوم ...  
...  
لا ترسي ذنباً على التلّة  
يا مريم.

## ما تبقى من اللعبة

على أيّة حال  
هذا ما تبقى في جيوبي:  
آثامٌ طريةٌ لم أقترفها بعدُ  
سأخذها معي إلى الغاباتِ  
حيثُ سأقضي ما تبقى من اللعبة  
دون منافسين  
يفسدون عليّ خلوتي مع الكائناتِ الأولى  
وهي تمرحُ حولي  
أو تفتشُ في جسدي عن مكان لبيوتها الجديدة  
هناك، لا شيء يُدهشُ  
ولا شيء يُربكُ الموسيقى التي تناسبُ بهدوءٍ  
مع رائحةِ الشجر والضوء ...  
تأتي أمهات الطيور لتضع بيوضها في كفيّ  
بينما الذكور تغرّدُ في الأعلى  
عندها  
لن أكون مضطراً لشتم الحياة  
التي عبرتها بساقين كاملتين  
وقلبٍ ناقصٍ  
ولم أترك فيها أثراً

إلا ما تساقط من روجي  
وهي تحاول أن ترقص:  
أوراقٌ في دفاترٍ مهملةٍ  
بصماتٌ في ملفاتٍ في دوائر الأمن  
وبعضُ حكاياتٍ  
في ذاكرة الخسائر الباهظة.

## رسائل القديمة

ما زلتُ أبحثُ عن عناوينَ مناسبةٍ  
لرسائلِ كتبتمُها على مدى عشرين عاماً  
لم أحفظها في مكان آمن  
فتسربتُ منها عصافيرُ كثيرةٌ إلى الأشجار  
وهربتُ منها زهورٌ إلى سياجِ الحديقة  
أما الأشعارُ،  
فأظنُّ أنها هاجرتُ إلى بلادٍ بعيدةٍ  
ولا ترغبُ بالرجوعِ إلى مسقطِ رأسِها.  
لستُ أسفأُ على ذلكُ  
فليسُ للشَّعرِ مسقطُ رأسٍ  
كما أنني أرى كل صباح، من نافذتي  
صبايا المدارس يتسلقنَ سياجَ الحديقة  
من أجلِ زهورٍ لأحلامهنَّ الصغيرة.

ما تبقى في الحقيقة قليل

لكنه يكفي:

حِكْمٌ يابسةٌ لا تناسبُ غيري

كلماتٌ محايدة لا تصلح لامرأةٍ جديدة  
صوّرُ لأصدقاء قدامى  
ينظرون إلى الكاميرا مباشرةً، ويتسّمون ...  
فلا ينتظرنَّ أحدٌ مني رسائلَ  
بعد اليوم.

## أمنيةٌ ثانية

لو كانتِ الحياةُ دراجةً هوائيةً  
لأتقنتُ قيادتها بلا مُعلِّمٍ  
عندها ستكونُ لي هويَّةٌ واضحةٌ  
أنطلقُ بها بين جبالِ  
ووديانِ  
وغاباتِ  
أبحثُ عن شجرةٍ  
كنتُ واحداً من أغصانها  
قبل أن تقطعني فأسُ في لحظةٍ عابثةٍ.  
أبحثُ عن أعيادِ  
هَرَبتُ بقميصِ طفولتي الوحيدِ  
وعن رغباتِ تعثَّرتُ بها في صباي  
عندما كنتُ أتلعثُهم أمام الجمالِ.  
سأبحثُ عن ضوءٍ  
ترأى لي مرةً أو مرتين، في شبابي  
ثم اختفى إلى الأبد  
كنتُ حينها  
أتبخترُ في الدروب الخلفية للشَّعر  
مثل عجوز يفقدُ الذاكرةَ أحياناً

فينسى أحفادهُ في الحديقةِ العامة

ويعود يبحثُ عنهم

في زوايا البيت.

\*

\*

لو كانتِ الحياةُ دراجةً هوائيةً

لما عدتُ إلى البيتِ

أبدًا.

## بداية الخريف

في آخر النهار

أحاولُ أن أحصيَ الأشياءَ التي أنهتُ عملها

فلا أجدُ غيرَ الشمسِ

فقد وصلتُ إلى المغيبِ، بنجاحٍ ...

\*

أواصلُ طريقي لأرى إن كان النهرُ في مكانه.

الأشارةُ الضوئيةُ تعملُ دون كللِ،

ما يتوقفُ، سيمضي بعد قليلِ،

صيدلياتُ تعلنُ عن منتجٍ جديدٍ

لعلاجِ المفاصلِ

رغم أننا في بداية الخريف.

\*

طريقُ الآلامِ هو ذاتهُ طريقُ المسراتِ.

عرفتُ ذلكَ عندما مررتُ قرب صبيّتينِ

خرجتا لتوهّما من الصيدليةِ

تطوفُ عليهما غمامةُ عطرٍ

وكركراتُ عصافيرِ.

\*

في الخريف

الأشجار تفتحُ أذرعها للضوء والهواء  
وتتركُ لأوراقها مهمّةَ تزيين الأرض  
بألوان لا تتكرر بقيّة أيام السنة.

\*

على الشاطئ،  
أحيي من بعيدٍ صيادين يُعدّون شبّاكهم  
لأصطياد نجومٍ تسقطُ في النهر  
عندما تحلّقُ الأحلامُ فوقنا  
بعد منتصف الليل.

## إِلباس

هناك شيءٌ فائضٌ، أو مفقودٌ

يُفسد اللعبةَ بيننا؛

حين أهبُّ عليكِ بلطفٍ

تشبكينَ شعركِ

بمشدّاتٍ من معادنٍ قاسيةٍ.

وحين أنهمرُ عليكِ بدفءٍ

وأسيلُ على خدّكِ

أو أبللُ أعلى قميصكِ

تحتمين بمظلاتٍ من حريرٍ مغشوشٍ

وتقفزين من رصيفٍ إلى رصيفٍ.

كأنني لم أبرّد رقبتكِ

وأنت تنتظرين الباص

في ظهيراتِ الصيفِ اللاهبة،

ولم أغو خرافكِ الصغيرةَ

كي تتركِ السفحَ الأجردَ إلى الوادي

عندما لم يكن هناك رعاة قريبون

ولا لصوص.

أنا أجري في سواقٍ صافيةٍ في بساتينكِ

تابعاً ما يتخلّف من عطرِكِ

وأنتِ تمكثين في مزهريّة اصطناعية  
لا ضوءٌ يطمئنُ إليكِ  
ولا عصافير.  
الصبحُ الذي أعرّفه  
ربما غابَ عنكِ منذ انشغالكِ بالبروق  
التي تزيد من سوءِ الحظِّ،  
حتى كأنَّ الفرصةَ الثانيةَ  
لم يعد لها وجودٌ في غبارِ وقتكِ الثقيلِ  
مثل مغزَلٍ لا يدور.

\*

ما أصبرني عليكِ  
وما أغفلكِ عن الفرح.

## نهاية سعيدة

بين البردِ القاسي  
والكسل اللذيذ  
مازال يبحثُ عن نهايةٍ سعيدةٍ  
لحكايةٍ لم تبدأ بعدُ  
أو ربما بدأتُ عندما كان مشغولاً  
بحلّ لغزِ جارتِه  
التي لم تعد تظهرُ على الشرفةِ  
إلا لتمسحَ الكأبةَ عن زجاجِ نافذتها  
أو لتمنحهُ نصفَ التفاتيةِ،  
ثم تغيبُ ...

\*

عندما يحلُّ الظلام  
يتذكّرُ أن كثيراً من الملامح تضيعُ  
بسببِ البردِ،  
لذلك لم يَرها تبتسمُ منذُ شهرٍ تقريباً  
وربما هو أيضاً لم يبتسم  
وليس الظلامُ إلا حُجةً قاتمة  
ربما تثبتُ شيئاً واحداً فقط؛  
أنّه حين يعجزُ عن الفعلِ، ينامُ

فيرى قلبه مثل جمرة  
تضيء النفق الأكثر خصوصيةً  
في سيرته الخالية من الإثارة.  
\*

هناك حقيقةٌ لا يودّ تذكّرها  
لولا صورةٌ على الجدار  
تكشفُ عن بياضٍ طاغٍ على شعره  
وتجاعيدٍ واضحةٍ أسفل عينيه.  
\*

الحقيقةُ مهمّةٌ،  
لكنّ الدفءَ أهمّ ...  
ربّما تلك بدايةٌ صالحةٌ  
لنهايةٍ سعيدةٍ  
عندما تكونُ الحياةُ باردةً  
في الداخل.

## كيف أدلكَ على الطريق؟

كان يمكن أن أعود من الحياة بخسائر أقل

لو أنني لم أسلك دروباً وعرةً

قادتني إلى كهوفٍ دافئةٍ

فوجدتُ أسلافي هناك

ما زالوا يعلمون أبناءهم الفضيلة

من خلال الرقص في الهواء الطلق

بثيابٍ مفتوحةٍ للهواء

وأرواحٍ مفروشةٍ على حقول القمح

وما زلتُ محلّقاً في سماءهم

حتى أنني نسيْتُ عربةَ العائلةِ

على سفحٍ منحدرٍ

فتدحرجتُ

إلى قاع الجحيم.

\*

كانت غاباتُ العصيان فاتنةً

دخلناها من أبوابٍ شتى:

بابِ النور

وبابِ الخير

وبابِ العدل

وبابِ الجمال ...

\*

أبوابٌ مفتوحةٌ ليلَ نهار

من يدُخلها لا يخرجُ منها

دون دليل يحفظُ الشمسَ برأسه

وحبالُ اللذة بين أصابعه،

يسيرها حيثُ يشاء

وتسيلُ الأغاني من فمه

كما تسيلُ الغوايةُ من أجسادِ الخادِماتِ

في المعابد الوثنية.

\*

كما لا يمكنُ تدريبُ سمكةٍ على السباحةِ

لا أعرفُ كيف أدلِّك على الطريق.

## عامٌ آخر

في الأيام الأخيرة من كلِّ عامٍ  
أحاولُ أن لا أعبَرَ إلى العام القادم ...  
أعرفُ أنني حين أكونُ هناك  
لن تسعفني ذاكرتي كي أستعيدَ ما تساقط مني  
وأنا أعبُرُ جسوراً عَبَرها آلافٌ قبلي  
ولم يصلوا ...  
\*

الحفلاتُ لا تناسبني  
أفضّل الجلوسَ أمامَ مدفأةٍ  
أُقلِّبُ أحلاماً تبيّستُ أصابعها من البرد  
أو أبحثُ في كتبٍ قديمةٍ  
عن صيادي أفكارٍ ومسراتٍ سهلةِ المنال.  
\*

لم أشعر أبداً أنني في سباقٍ  
مع أنّ هناك مئاتُ الجوائزِ  
مدفونةٌ تحت أنهارٍ  
أو مطمورةٌ في غيوم.  
\*

ولأنّ الأسبابَ السهلةَ لا تُفضي إلى شيء

أخرجُ في منتصفِ الليلِ  
إلى شوارعِ المدينةِ الخلفيةِ  
أبحثُ عن مقهىٍ شعبيٍّ، حيثُ الزبائنُ مثلي،  
لا يتأسَّون على سنةٍ مضت  
ولا يتمنون كثيراً من سنةٍ قادمةٍ  
ويحفظون حكاياتٍ ملقَّقةً  
عن أمجادٍ ضائعةٍ وحروبٍ لا تنتهي  
وعن وسائلٍ تهريبِ الأفراحِ إلى القلوبِ  
حيثُ يمكنُ لأشياءٍ خافتةٍ، ولذيذةٍ  
أن تتسللَ إلى دمك من أذنيك  
أو عينيك،  
أو شفطيك.

## فراڊيسُ مفقودة

لأسبابٍ واهيةٍ  
يكبرُ الأطفالُ بسرعةٍ  
دون أن ينتهوا إلى المكائدِ التي تجرّهم  
إلى أخطاءٍ تتراكمُ خلفهم  
مثل أكوامٍ صغيرةٍ من التراب ...  
ثم بعد خمسين عاماً  
تصير سداً أمام رغبتهم في الرجوع  
إلى هناك  
حيث بقاياهم في زوايا البيتِ المهملةِ  
ورسوماتهم على الجدران  
وأوراقهم المدرسيةُ، تحت الغبار  
ثم سخطهم على الكبار  
الذين أفسدوا عليهم  
أحلامهم الصغيرة.  
\*

عندما يكون الطريق واسعاً  
والأبوابُ مفتوحةً أمامنا لاحتِمالاتٍ كثيرة  
ننسى الأبوابَ التي تُغلقُ خلفنا  
تلك التي سنحتاجها يوماً ما

كي نبدأ من جديد .

\*

بين وقتٍ وآخر

ولأسبابٍ واهيةٍ أيضاً

نبحثُ عن فراديسٍ مفقودة

في صور العائلة التي بهتت ألوانها

ولم تعد قادرةً على ملء الفراغات

التي يتركها الراحلون خلفهم.

## رجلٌ سعيد

ما الذي يحمله الرجلُ السعيدُ برأسه؟

أسألُ نفسي يوماً

كلما رأيتُهُ في الصباح ذاهباً إلى السوق

وعائداً برغيفي خبزٍ، وابتسامه طافحةً

كأنها عبيرُ امرأةٍ يطوفُ حوله

حتى أظنُّ أنّ شيئاً ما يرقصُ في داخله

فأقدمه تترك أثاراً ورديةً

على التراب.

\*

هو لا يراني، طبعاً

مع أنني أصطفّ جنبه في موقف الباص

وكثيراً ما أجلسُ معه على المقعد ذاته

أتأملُ من قريبٍ

بشرته اللينة مثل طينِ الحديقةِ

وأحاول أن أصغي لما يجعلُ عينيه

تسرحان بعيداً عنا

نحن الذين ما زلنا في الصفحة الأولى

من دفتر المسرات.

\*

ما الذي يحملة الرجلُ السعيدُ بقلبه  
كي تحلق العصافيرُ فوقه  
حين يعودُ في آخر النهار  
وليس في ذهنه شيءٌ مما نثرثرُ به  
طوال اليوم  
كما يفعلُ الفلاسفةُ  
والعاطلون عن الحب.

## من صندوق الغوايات

كلما انتابتنى شكوكٌ  
بأن صوتي لم يعد صالحاً لأغواء العصافير  
كي تحطّ قرب نافذتي  
أصعدُ، في الصباح الباكر، إلى الطابقِ العلويِّ  
لأراقبَ الشمسَ وهي تشرق  
على الأشجار  
والبيوتِ التي تصطفُ حولَ بنايةِ البريدِ القديمةِ  
حيث لم تعد هناك مفاجآتٌ  
ولا أسرارٌ تطيرُ من صناديقها  
قبل موسم الأخبار  
والأكاذيب.

\*

الرسائلُ التي كتبْتُها على مدى عشرين عاماً  
ثم لم أرسلها إلى أحد  
أخفيْتُها  
في أكثر الأماكن دفناً  
من سيرتي التي تشبه مبنى مهجوراً  
تلوذ به الفراشاتُ في النهار  
والخرافاتُ في الليل.

\*

بعد قليلٍ  
يكتظُّ طريقُ المدرسةِ بالصبايا  
ربما أكتبُ رسالةً إلى إحداهن  
تلكَ التي لم تذبلِ ابتسامتها  
رغم أنها تمشي ساعةً كاملةً كل صباح  
كي تدركَ أحلامها التي تسبقها  
بعامٍ كاملٍ.

## سوءُ الحظ

ولأنه سيءُ الحظ  
يفشلُ دائماً في اختباراتِ الكذب  
حتى زوجته لا تصدِّقُ أنه عاش منفيّاً  
في الكتابةِ  
وأنه لا يعرفُ امرأةً ثانيةً  
لأنه يحلمُ بنساءٍ كثيراتٍ  
يخرُجنَ من الغابات  
بشعورٍ متروكةٍ للريح  
وصدورٍ تلمعُ تحت الشمسِ،  
وغالباً ما يصحو من نومه  
وقد نسيَ العائلةَ على مشارفِ كارثةٍ  
بينما يكونُ هو قد تلبَّسَ صورةً نبيِّ  
يبشِّرُ بموسيقى رياحٍ وقصبِ  
فتنبتُ في صحرائه أشجارُ غواياتٍ باذخةٍ  
وترسلُ الغيومُ عواءً ساحراً  
في ليله الطويل.

## قراءة بالأصابع

كما يفعلُ سواي  
عندما يتلمَّسُ طريقَهُ في الليل  
أتلَمَّسُ طريقي في النهار  
وأمرَّ بأصابعي على الوجوه  
كي أتأكد من أن الذي أسمعهُ ضحكٌ  
وأن الذي يسقطُ من السماء ماءً  
وأن الحرب قد انتهت حقاً  
بما يشبه الخيبةَ  
أو الأسفَ  
وأنِّي أنا الذي طرقتُ الباب  
لأخبر أبي بنهايتها  
لكنه صادفَ أن ماتَ قبل ذلك بثلاثِ سنين  
دون أن يخبر أحداً  
ولم يورثني غير قليل من الحبر  
على الأصابع.

## لا تبحثُ عنها بعيداً

من أجل جرعةٍ سائغةٍ من الفرح  
كان عليه أن يؤدعَ رأسه  
في خزانةِ الملابس المستهلكة  
وأن يدربَ قلبه على الطيران  
مثل فراشةٍ مرسومةٍ في دفترٍ مدرسيٍّ  
أو مثل صبيٍّ يتعلمُ، لأول مرة  
كيف يسقي أحواض البقدونس  
بمجرفةٍ صغيرة  
وقدمين عاريتين.

\*

كانت هناك امرأةٌ  
مازالت تقرع أجراساً في ذاكرته ...  
هي خليطٌ غير متجانس  
من سعادةٍ غابرة  
وأسفٍ يانع.

\*

البيوتُ تزاحمت في المدينة  
ورجله لا تتذكران الشوارع الكثيرة

ولم يعد في الوقتِ ما يكفي

كي يتبعَ عطرها في المنافي.

\*

من أول الليل إلى آخره

يتجمّع حوله مهتّون وحُسادُ

وصائدو أخبار

بينما يكون هو قد تحرّر من آخر رغباته

في الحصول على إشارةٍ من السماء

بأن غدّه سيكونُ أفضل

فيمضي معهم في اللعبة

يضحكُ

ويمرحُ

ويُصدّق حكاياتهم المعادة عن جمال صوته

فيغني

ويهزّه الطربُ حتى يوشك أن ينسى كل شيء

لكنه لا ينسى

أن جمرةً في داخله

ستبقى متقدّةً

بعد أن يغادره الآخرون .

## موطنُ الملاك

مرّةً

حاولتُ أن أجربَ خدعةً قديمةً

بأن أُدخِلَ يدي في جيبي

فتخرجَ بيضاء ...

كان الأمرُ سهلاً

لكنني تمنيتُ لو أنني لم أفعل

فلقد خرجتُ حشودٌ خلفي؛

نساءً يتبركنَ بثيابي

بأنسون يطالبونني أن أنتصفَ لهم

موتى يرغبون بأن يعودوا شباناً

خائبون، وجناةٌ، وتائباتٌ

كأنهم كانوا ينتظرونني

منذ ألفِ عام ...

\*

هربتُ إلى تلّةٍ وناديتُ بأعلى صوتي:

أما من راشدٍ يفهمني، إنها لعبةٌ يا قوم

لم يستمع أحدٌ

كانوا منهمكين بتأويلي

وتأصيل معجزاتِ لي، لم أفعلها  
ثم أطلقوا على التلّةِ إسم "النور"  
وعلى الصخرةِ التي وقفتُ عليها، "موطنُ الملائك".  
\*

أوقفتني الشرطةُ بهم شتى  
وحين خرجتُ بكفالةِ ناسٍ لا أعرفهم  
وجدتُ أصدقاءً لي قد عقدوا صفقاتٍ  
وصاروا تجاراً  
وأعياناً.  
\*

هربتُ إلى العتمةِ  
كي أعود إلى نفسي  
قالوا: اختفي وسوف يظهر قريباً.  
لكنني،  
والحقّ أقولُ لكم  
سأعود قريباً  
فاللعبَةُ ماضيةٌ من دوني.

## يحدثُ معي دائماً

يحدثُ معي

أن أتأخّرَ عن عملي لأسبابٍ مختلفةٍ

منها:

عشبٌ يابسٌ على جانبِ الطريقِ

يجعلُنِي أفكرَ بالشتاءِ القادمِ

أو امرأةً مسنّةً تستوقفني

ثم تنسى ما تريدُ قولهُ

أو عصفورةٌ تستحمّ برذاذِ نافورةٍ

غافلةً عن قطّ رابضٍ

في جوارِ الحديقةِ ...

\*

يسألني المدير:

ما الذي أخركَ اليوم؟

أجيبُ:

كنتُ أطارِدُ قطاً أفسدَ عليّ صباحي

أو ربما كنتُ أحاولُ إقناعَ امرأةٍ

بأنّ ابنها الذي فقدتهُ في حربٍ سابقةٍ

ليس أنا

أو أنني تطوعتُ لزرعِ ورودٍ

في طريق المدرسة  
ثم انتهيتُ إلى مركز الشرطةِ  
مُتَّهَمًا بِإشعالِ حريقٍ في أحراشِ  
قربَ مبنىِّ حكوميِّ.

\*

يحدثُ دائماً  
أن أُطردَ من عملي  
لأسبابٍ تافهةٍ.

## أبي يحرق ما أكتب

لقد اسديت لي خدمةً كبيرةً  
وانتَ تمحو ما كتبتُ على جدران العالم  
لقد كان الأمرُ شاقاً،

ومخيباً

فلماذا أتعبتَ نفسك يا أبي؟

ادري أنّك تخافُ عليّ من الحروف

كي لا تلتفتَ على عنقي

لكنّ العالم لم يعد معنيّاً بما نكتب

لقد أوهمونا أنّ للفكرة نصلاً حاداً

وأتمها يمكنُ أن تحلّق مثل صقر

فتركنا دفاترنا مفتوحةً

كي تقرأها السماء متى تشاء

وبعثنا رسائلَ لأشباهنا من طيور الأرض

ورسمنا حدائقَ للحالمين

وللصبايا

لكن الحقول امتلأت بالقوارض

ولم تحلّق الفكرةُ يا أبي

إنها ما زالت تحبو هناك بعيدةً

مثل حكةٍ بين الأصابع

وطريّةً

مثل حلزون يتخفى من الشمس.

## لماذا تأخرت؟

أوجهُ الآخرُ للقِصَّة  
انني جنْتُ متأخراً دقيقتين عن الموعد  
ولم أجدك هناك  
لم أجد الشجرة الوحيدة التي هبطتُ  
من جنةٍ غابرة  
كي ترعى صغيرين يلوزان بظلها  
من جحيم المدينة  
ومن تركاتِ المصايين بالمواعظ ...  
سألتُ صاحبَ الحانوتِ القريب  
وعارضةً الأزياءِ المبتسمةً دائماً  
في لوحة الإعلان الكبيرة  
سألتُ عصفوراً يقفُ في المكان ذاته  
حيث كنتِ تنتظرين  
لم يعرفُ أحدٌ  
ولم ينكر أحدٌ  
أنَّ حطابين غلاظاً  
جاءوا بسيارةٍ حكومية،  
إقتلعوا الشجرة من جذورها،  
وأن صبيّةً تعلقتُ بثيابِ أمِّها

وهم يجرونها قسراً

إلى دارٍ للعجزة

أو ربما إلى فرنٍ

لصناعةِ الفحم.

\*

هناك وجوهٌ أخرى للقصة

ليس فيها ما يدفع اللوم عني

لأنني تأخرتُ دقيقتين

عن الموعد.

## طبيعيةٌ جداً

لأنك طبيعيةٌ جداً  
يمكن أن تكوني شجرةً  
تلوذ بثيابكِ عصافيرُ هاربةً من المطر  
ويحفرُ على جذعكِ عشاقٌ صغارٌ أسماءهم  
وقد تكونين قوس قزح يظهر فجأةً  
ويختفي  
دون أن يترك أثراً على حقول القمح  
ولأعلى مصائرنا السائبة  
سوى أننا نبقى نتذكركِ في مواسم الجفاف  
وقد تكونين نسمةً تأتي بروائحِ بريّةٍ  
من أماكن بعيدةٍ  
ثم تنقلبين، فجأةً، ريحاً عاصفةً  
عندما تحاصرُكِ البذاءاتُ في الطريق  
أو تشعرين بأن النحس يطاردكِ  
وأنت تركضين من صيدليةٍ إلى أخرى  
تبحثين عن مرهمٍ لعلاجِ حبِّ الشباب.

\*

ولأنك طبيعيةٌ جداً  
أكاد لا أميّزُ بينكِ وبين صخرةٍ

يحاولُ البحرُ أن يدفعها إلى الشاطئ  
بينما هي لاهيةٌ عن رعونتهِ  
تفليّ شعرهُ بأصابعِ ناعمةٍ  
كمن يروضُ حصاناً جامحاً  
أو ينومُ طفلاً.

\*

هكذا يمكنُ أن أفهمكِ  
وأزيل الغموض الذي باعد ما بيننا  
لكنّ الوقت تأخّر الآن  
وعلىّ أن أغفو قليلاً  
كي أحلمَ بكِ  
وأنتِ تركضين نحوي  
وتضحكين بصوتٍ عالٍ  
وقد نسيتِ زرَّ قميصكِ الأعلى  
مفتوحاً  
فأنتِ طبيعيةٌ جداً  
حتى في الأحلام.

## هزيمة

يبدو أنني

سأطلبُ من أصدقائي القدامى

أن يوقفوا تواردهم علىّ في المنام

كلّ يوم يأتي أحدهم يسألُ: أين وصلتُم؟

وأرى في عيونهم طيوراً تبحثُ عن مأوى

فأسوقُ الحديثَ إلى غاباتٍ بعيدةٍ

حيث لا طرقٌ تصلُ إلى هناك

ولا طائراتٌ شراعيةٌ

ولا فقهاء

ومثل اعترافٍ مغلفٍ بذرائعٍ شتى

أحكي لهم عن سوء الطالع

والأخطاء اللغوية التي حرّفنا بها

معنى الهزيمة

وشحة الماء في صيفنا المزمّن

والبغال التي تحرن في الطرق الجبلية

كلما أردنا عبور الحدود

لأننا نظنُّ أن الحقَّ يركضُ على ساقين

بينما البغالُ واثقةٌ أنّه يخبُّ على أربع

وهذا ما يفسّر ارتباكَ خطواته

كلما حاول أن يمشي مستقيماً  
على أرضنا المائلةِ  
نحو المغيب.

## من سيرة الإقحوان القصيرة

في النهاية  
كلّ الألوان يذهبُ بريقُها  
لونُ الضحك  
ولونُ الخيبة  
وألوانُ قمصاننا التي سرقتها أعيادُ قاسية  
مرّت كما يمرُّ فوزٌ في حلم  
وحتى الآثامُ الصغيرةُ التي أخفيناها  
في أكياسٍ مختومةٍ  
ستصيرُ شاحبةً  
والأسرارُ التي يفتضحها ابناؤنا  
في مناسباتٍ وقورة  
وما تلتطختُ به أسماؤنا  
ونحن نجوبُ بها  
من سجلاتِ المدرسة  
إلى دوائرِ الأمن  
إلى دفاترِ الخدمة العسكرية  
إلى المطارات  
وما خلفتهُ أكفُّنا على الأبواب  
ووجوهنا في المرايا

ونحن نحاول أن نعبر منها إلينا  
أو على الأقل، إلى بقاينا التي  
مازالت تتشبَّثُ بمشاهدَ ملونة  
من سيرة الأحقوان القصيرة.  
\*

في المدرسة الإبتدائية  
كانوا يعلموننا: "إزارُ أمِّي أزرق"  
وكنت دائما أقرأها: "إزارُ أمي أسود"  
حتى ظنَّ المعلم  
أنني أشكو من عى الألوان.  
\*

بسبب الحرب  
لم تعد الألعابُ النارية تستهويني  
ولا الأعلامُ الوطنية التي ترفرف  
في طريق المطار  
مثل صفٍّ من مهرجين  
يعيدون المشهد ذاتهُ  
كل يوم.  
\*

للذهب غوايةٌ قاتلة  
تشبه الوقوف على حافة بركان

والنظرَ مباشرةً إلى عين الشمس،  
ذلك ما لا تعرفهُ النساءُ اللواتي يعملن  
على امتداد الأرض التي خالطها سواد  
من تاريخ الغزاة  
والحرائق.

\*

في السجون  
لونان لا يختلطان أبداً:  
لون السجّان،  
ولون السجين.

## خبية

من حياتي التي قضيتها بينهم  
ظفرتُ بحكمةٍ واحدةٍ ،  
لكنها كانت بلا جناحين  
حكمةٌ بسيطةٌ  
لا تحسنُ حتى عبورَ شارعٍ مزدحمٍ  
ولا تتقنُ السباحةَ في نهرٍ صغيرٍ  
حكمةٌ مرتابةٌ  
تفضلُ أن تمشيَ شهراً  
تبحثُ عن جسرٍ آمنٍ  
أو تغلقُ الأبوابَ على نفسها  
خوفاً من أن تعبتَ الريحُ بشعرها القصير.

\*

كان يمكنُ أن أتعلّمَ خيراً منها  
لو أنني عشتُ بين عصافيرٍ  
أو نباتاتٍ متسلقةٍ  
أو حتى بين ذنابٍ  
تأبى أن ترؤضَ على الذل.

## طعمُ الموت

نكتبُ عن الموت، كأننا نعرفُهُ

كأننا تذوقناهُ بطرف لساننا

فوجدناه مرّاً

وتلمسناهُ باصابعنا

فكان أملسَ مثل أفعى

وبارداً مثل كهفٍ تأوي إليه الضباع

في ظهيراتِ الصيفِ اللاهبة.

الذين عرفوهُ قبلنا

لم يقولوا عنه ذلك

بعضهم يدّعي أنه غامضٌ ومحيّرٌ

فهو ليسَ حاراً ولا بارداً

لا حلوّاً ولا حامضاً

بل أن طعمهُ لا يُدرِك

بسببٍ من مخاوفٍ غير مفهومة

ورثناها ولم نفحصها جيداً

لأننا لا نريدُ أن نعرف

قبل أن نجربَ الأشياءَ الأليفة

كالموت

ذلك الذي لا يفسدُ مع الوقت

ولا يهزم.

\*

ويقولون أنه كثيراً ما يضلُّ طريقَهُ  
فحين تراه امامك مباشرة  
فربما هو يقصد ابنك، أو أخاك  
أو شخصاً آخرَ لم يخطر على بالك  
قبل أن ينفجر إطارُ السيارة  
التي مرّت مسرعةً  
جنبك ...

## محاولة لاستدراج الربيع

كلّ ما عليكِ فعله  
أن تغمضي عينيكِ تماماً  
وأن تتبعي خيط العطر الرفيع  
الذي يقودكِ إلى حديقةٍ بعيدةٍ ...  
على سياجها الأخضر  
علّقتُ أشعاراً خجولةً عنكِ  
ووروداً من ذكرياتٍ تركناها هناك  
عندما غادرنا المدينة  
ولم ندر أننا لن نعود إليها  
إلا محمولين على محقّاتِ الخيبة.  
ستجدين هناك حشوداً في انتظاركِ  
كي تقوديهن إلى رقصةٍ مؤجلةٍ منذ سنين  
فهم لا يحسنون أداءها من دونكِ  
رقصةِ الربيع الغائب  
والأشجار التي تقصّفت أغصانها  
مذ غادرتّها العصافيرُ  
والنساء اللواتي تهدّلت أفرأهن  
في انتظار أعيادٍ ذهبّت إلى الحقول  
ولم تعد.

ربما لن تجديني بينهم  
لكنني سأرقص معكم  
بكل ما أوتيتُ من طفولةٍ  
سأكونُ البستانيَّ العجوز  
والمغني الذي لا يتعب  
والنافورة التي يعلو ماؤها في سماءِ الرغبة  
والربيع الذي يُمكن استدراجه  
إلى حيث تكونين  
مغمورةً بالفرح.

## خارج المضمار

في هذا السباق المحموم  
لن أكونَ الفائزَ أبداً  
ولا أطمحُ إلى ذلك  
فهناك ما يشغلني في مكانٍ آخر  
خارج المضمار  
بعيداً عن زعيق المراهنين  
وعن جوائزهم  
بعيداً عن الصحراء وأصنامها  
والتعاليم التي تعتاشُ  
على جثث المغلوبين  
هناك يمكنُ أن استحيلَ نورساً  
أو ملاكاً عجرياً  
ينفخُ في بوقِ المعاصي البريئة  
ويرقصُ  
على شواطئ هاربةٍ من الموت  
في انتظار شمسٍ  
ربما لا تشرقُ أبداً.

## حلم

منذ أن حلمتُ بأني نورسٌ  
وأنا أحاولُ كلَّ يوم  
أن أحلِّقَ  
من أعلى جسور المدينة  
فليس من اللائق  
أن أكون أنا  
أولُ نورس  
يخفق بالطيران.

## حارسُ الغابة

لنحاولُ ...

أنا بقراءةِ الرخام

وأنتِ بترويضِ الورقِ الملونِ ...

انا

بطقّ الأصابع

والضربِ على الأرضِ، بالقدمِ اليسرى

وأنتِ

بالرقصِ حولِ النارِ

وتأجيحِ الهواءِ الباردِ من حولك.

لنحاولُ ...

فربما وجدنا الغيمةَ التي تمطرُ بهجةً

على حدائقنا

والأسوياءَ الذين يبادلوننا

فرحاً بفرح

وزهوراً بفراشاتٍ ...

أنا

سأسند ظهري إلى بقعة ضوءٍ

تسرّبت من سقف العالمِ المعتمِ

محاولاً سدّ فراغٍ في المعنى

وفي القصيدة  
وأنت تمرّين في طريقك إلى المدرسة  
لاهيئةً عني  
وأنيقةً مثل شجرة.  
لن تكون الحياة أبسط من ذلك.  
سأدورُ حولك مثل رحي  
أطحنُ المسرّاتِ الناعمة  
من أجلك  
ومن أجل العصافير  
التي خلفتها الحرائق  
بلا مأوى  
وسأروي لكِ حكاياتٍ قديمةً جداً  
عمّا دار بيني وبين الحطابين  
عندما كنتُ حارساً للغابة.

## رسالتهم

لأن الرسالة كانت سوداء  
تأخرنا كثيراً في فك رموزها  
كنا نبحث عن ما يبدو كأنه بياض،  
مثل شئ يلمع في العتمة  
مثل ضفدع صغير يقفز في ماء أسن  
مثل قلادة من نحاس  
مثل معلم مبتهج بدرس التاريخ  
مثل تفسير ذرق الطائر في الأحلام ...  
كانت الرسالة سوداء  
ناصعة  
مثل شمس لم تشرق.

## على الطريق السريع

على الطريق السريع  
الذي يطلُّ على غابةِ العالم  
بنيْتُ لي مقعداً من الخشب ...  
وما زلتُ أنتظرهم  
منذ عامين، أو أكثر  
أولئك الذين تاهوا معي في الغابة  
بعد أن قطعنا نصف الطريق  
إلى قلبها الغامض  
قبل أن تهدأ الطيورُ من حولنا  
ويختفي الضوءُ في لزوجةِ الهواء ...  
لم أكن يائساً أبداً،  
ولن أكون  
فلقد ربَّيتُ طيوراً وأرانب  
في حديقةِ بيتي القديم  
وعلمتُها كيف تميِّزُ بين أصواتِ الغناء  
وضجَّةِ الرصاص التي تعكِّرُ الفرح  
وهو يحلِّقُ عالياً  
بأجنحةٍ مضرَّجةٍ بالدم.  
ثم أني ما زلتُ أزرع أشجاراً هنا،

قربَ الطريق السريع  
وأغوي عصافيراً خائفةً كي تمكثَ معي  
وما زلتُ أعدُّ الشايَ كلَّ مساء  
ولا يأتي أحدٌ منهم  
لأروي له من ذاكرتي عن أعراس  
كان يقيمها العجْرُ على أطرافِ الصحراء  
عندما كانتِ الحياةُ خفيفةً  
مثل فساتينَ قصيرةٍ  
في الصيف

...

..

.

أعرف أنّهم سيظهرون في مكان ما  
وربما في زمن آخر  
أولئك الذين ما زالوا يبحثون عن المصابيح  
في عتمةٍ ليلنا الطويل  
وسوف يمرون بقربي  
دون أن ينتبهوا إلى أنني جالسٌ في انتظارهم  
أراقبُ الشاحناتِ السريعة  
وأستمتعُ برتابةِ الحياة  
هنا في الأعالي  
قريباً من الأرض.

## آن لي أن أستريح

كانت الرحلةً طويلةً

وشاقّةً

بحيثُ لم أعد أتذكّرُ كيف بدأتُ

وإلى أين أريدُ

وقد آن لي أن أستريحَ قليلاً

قبل أن يحلّ الظلامُ على "خربةِ الملاك"...

\*

عندي أصدقاءٌ هناك فقدتُ أثرهم

أنا مدينٌ لهم بأولِ محاولةٍ للطيران

فوق حقولِ القمح

سأبحثُ عنهم

كما يبحثُ جنديٌّ عاد متأخراً من الأسر

فالتبستُ عليه البيوتُ والوجوه

وفضّلَ الإنزواءَ بعيداً تحت الأشجار.

ماذا لو أخبرتهم

بأنني ساعي البريد الذي افتقدوه

منذ عشرين عاماً

وما زلتُ أحملُ لهم في جعبتي

رسائلَ عن طفولتهم

وأمالهم التي لم تكن تبدو طائشةً  
حتى داهمتهم فكرةُ العامِ الفائتِ  
والقطارِ السريعِ  
ومقايسةِ الموتِ بالنقودِ  
بعد أن كانوا يزرعون أشجار التين  
بين الصخورِ  
ولا يبحثون عن تسوياتٍ لخساراتهم.  
\*

لن يكون هناك مكانٌ آخر  
لتجربةٍ أوفر حظاً.  
\*

تسلّمتُ، بالأمسُ  
دعوةً لحضور حفل زفافٍ  
لفتاةٍ كنت كتبت لها قصائد حبِّ  
لم تكتمل.  
\*

لقد آن لي أن أستريح قليلاً.

## المشهد ذاته يتكرر

لماذا عليّ أن أُجيبَ على أسئلةٍ غامضةٍ  
كي أعبّرَ ساقيةً صغيرةً  
تفصلُ بيّني وبين العالم  
بيّني وبين ما أراه بوضوح أنّه شجرةٌ  
وطيورٌ تحطُّ عليها وتغادرها  
دون أن يسألها أحد.  
المشهد ذاته يتكرر  
والأسئلةُ تُعاد دون ملل  
حتى أنني لفرطِ شرودي منها  
أنسى أحياناً أن أغلقَ باب بيّتي في الليل  
فتدخلُ الكوابيسُ إلى الحديقة  
كاملةً،  
وجاهزةً لترويع الأزهار الصغيرة.

\*

جارتِي التي لا تقرأُ الشّعْر  
تُقسِمُ أنّها ترى أضواءً تطوفُ قرب نافذتي  
وعلى السياج  
ثم تُعاتبني على أنني لم أكتبُ لها قصيدةً  
بمناسبة العام الذي انقضى

دون مشاكلَ بيننا.

\*

وهناك من يتفلسفُ

عندما تشتدُّ العتمةُ

ولا يبقى من أمل سوى أن نرفعَ أصواتنا

كي نطمئنَ إلى أننا ما زلنا ندبُّ على الأرض

كباقي الدوابِّ التي لا تتفلسفُ أبداً.

\*

دعينا نقسِّمُ الوقتَ بيننا قسمةً عادلةً

فرحُ أكيدٌ لكِ

وفرحُ محتملٌ لي.

## أخيراً

أخيراً،

عثرْتُ على السور الذي

لم يصمد أمام الغزاة

عثرْتُ على المكيدةِ

عثرْتُ على ماءِ الوجهِ الذي

ما زال يسيلُ بين الخرائب

على نياشينِ القادةِ مرميةً في المجاري

على الفأسِ الوحيدةِ قرب السور

على آثارِ السهامِ على الجدران

على صالةِ القمار

حيث وثيقةُ الإستسلامِ مثبتةٌ بخنجر

على طاولةٍ صغيرة

ذلك الشيءُ الوحيدُ الذي

ما زال على حاله.

\*

ذهبتُ إلى المعبد

لم أجد الآلهة هناك

ولا الشياطين

كان عشبُ يابسٍ على الجدران

وسحالي تختبئ هناك من القيظ.

\*

من أين لك كل هذا الجمال

أيتها البلادُ التي

من بلائٍ

وصبر.

\*

كانت على بوابة الكهف

ساعةً تشير إلى البيادر الأخيرة من طفولتنا

إلى طاحونة الماء التي لم تكتمل

لأن النهر لم يعد إلى مكانه.

\*

عثرُ على الهزيمة

في ثنايا العقول.

## في ذكرى صديقي الموسيقي

صمتُ مريبٌ، هذا الصباح!  
لم أسمع سيارةً أسعافٍ  
مع أن المستشفى ليس بعيداً  
حتى أنّ رائحة الفورمالين  
مازالت تملأ الشارع الذي يفصلُ بيننا  
وتلوّثُ أصواتَ العصافير في الحديقةِ القريبة  
حيثُ يجتمع الزوّارُ قبل العاشرة صباحاً  
يستقطرون الأملَ من التبغ  
ومن الصمتِ الذي يجثمُ على رؤوسهم  
بينما النساءُ ينثرن على العشب  
صلواتٍ من فُتاتٍ لغّةٍ ومخاوف  
وهذا ما يجعلني أتذكّرُ الله  
بكثيرٍ من العتب  
أتذكّرُ القرى والمسراتِ الصغيرة  
التي تروّض المأميَ قبل أن تنضج  
أتذكر الصبيّ الذي تعلّم العزف  
على ربابةٍ من الصفيح  
وكان يبحثُ عن طيور تختبئُ في القصب  
ونحن نتبعُهُ مثل جوقةٍ من منشدين صغار

ثم حين كبرنا قليلاً  
قيل أن ساحرةً خطفتهُ  
في ليلةٍ باردةٍ  
لم يكن يقوى فيها على الغناء.  
\*

واجههُ المقهى خاليةً  
وصوتُ المغنّيةِ، لا يصل  
عرباتُ بيع الملابس المستعملة،  
خاليةً أيضاً.  
\*

في طريقنا إلى الحفلة  
ندسّ أحزاننا في جيوبنا  
كي لا يراها الآخرون.  
\*

هذا يشبه اليوم الأول من حربٍ سابقةٍ  
سأبحث في جيب معطفي القديم  
عن صورةٍ لصديقي  
باع أجهزته الموسيقية في اليوم الثاني  
وفي اليوم الثالث،  
غاب.

## حملٌ ثقيل

في اليوم الأوّل من كلّ شهر  
أزورُ المدينةَ لحاجتين فقط،  
أتفقّد صندوقَ بريدي أولاً  
ثم انتظرُ في مقهىّ شعبيّ صديقاً  
ما زلتُ مديناً له باعتذار  
لأنني تأخّرتُ عنه في آخر موعدٍ بيننا  
قبل عشرين عاماً.

\*

### في المقهى

تزداد المسافةُ بيني وبين المغني  
بيني وبين رائحةِ المقاعد الخشبيّة  
أما الزبائنُ، فقد تعودوا علىّ  
حتى أنّهم لا يأمهون لعباراتِ التدمر  
التي تخرجُ مني من وقتٍ لآخر،  
وكثيراً ما ينتظرون أن أحكي لهم  
قصصاً عن أشجار غريبةٍ، وغاباتٍ،  
وشواطئٍ من رمال ملونة  
ومخلوقاتٍ لا تشبهنا  
تعيش هناك.

\*

سأْمُ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الظَّهْرِ  
يَقُودُ قَدَمِيَّ إِلَى أَمَاكِنَ عَرَفْتُهَا  
عِنْدَمَا كَانَتْ بُيُوتُهَا  
تَبْدُو مِثْلَ أَحْلَامِ فَرَاشَاتٍ لَمْ تَكْتَمَلْ  
أَصْغِي إِلَى بَابٍ يَتَنَفَّسُ  
سِتَارَةَ شَبَاكِ تَتَنَاءَبُ  
غَصْبِنَ شَجَرَةٍ يَهْتَزُّ فِجَاءَةً  
مَاءٍ يَقْطُرُ مِنْ حَنْفِيَةِ

دِق

دِق

دِق

دِق

.

.

\*

فِي آخِرِ النَّهَارِ  
أَعُودُ خَفِيفًا إِلَى مَعْتَزَلِي  
إِلَّا مِنْ دَيْنٍ فِي رَقَبَتِي  
أَحْمَلُهُ مِنْذُ عَشْرِينَ عَامًا.

## الحصان

هكذا أو هكذا  
ستفقدُ، في النهاية، قدرتك على الحزن  
مثل حصانٍ جاءوا به إلى المدينةِ  
وحجبوا عينيه،  
كي تبقى أحلامه تتأرجحُ في عربةٍ يجرها  
ثم تبدأ بالذبول  
شيئاً  
فشيئاً.  
\*

مبكراً  
أدركتُ أنني ذاهبٌ إلى حربٍ ما  
بصحبةِ أصدقاءٍ أبرياء  
كان يقرُّبنا ضحكٌ من اليأس  
وقدرةٌ على التسلُّل من معسكراتِ الموت  
إلى حاناتٍ في وسطِ المدينةِ  
ثم العبورُ على حبلٍ رفيع  
فوق خنادقٍ من تاريخٍ زائفٍ ودسائس  
نرددُ أغاني قديمةً لا تتعفن  
أو نحاولُ أفكاراً عصبيةً على الوقت

تشبهُ قصبَ الأهوار  
التي نراها من نوافذِ القطاراتِ المعتمدة  
عندما كنا نُحشِرُ فيها  
مثل أكداسٍ من ورقٍ مهيأةٍ للحرق.  
\*

كان الجنديُّ يعيدُ الحكايةَ ذاتها  
واللجنةُ الطبيَّةُ تصغي جيداً  
لكتِّها لا تفعلُ شيئاً  
حتى تعبَ الجنديُّ من الحكايةِ  
والحصانُ تعبَ من الركضِ  
فلم يعد يصغي إلى أحدٍ.

## عائلةٌ واحدة

بعضُ الصّور توحى أنّنا من عائلةٍ واحدةٍ  
ربما يكونُ أحدنا قد وُلِدَ على شاطئِ نهرٍ  
فننقذُ الدفءُ إلى قلبِهِ

والآخرُ عاشَ بين أغصانِ شجرةٍ  
فنبتتْ لهُ أجنحةٌ وريشٌ ناعمٍ  
وهناك من ورثَ دماً على أصابعِهِ  
وما زال يغسلُهُ بأدعيةٍ وصلواتٍ  
حتى صار قلبُهُ أبيضَ من ضوءٍ.

\*

سنعبُرُ جميعاً هذه المحنةَ الباردةَ  
حتى وإنْ سقطتْ أوراقنا كلّها  
فهذا الخريفُ يحفظُ القلوبَ من التلفِ  
فلا تحفظي حروفَ اسي  
في دفترِكَ المدرسيِّ  
فهي سرعان ما تتبدّل  
ولا تثبتي شعركِ بمشابكٍ من ذهبٍ  
فالريحُ تريدكِ هكذا، واضحةً  
مثل جدولٍ صغيرٍ

وربّما أكونُ أنا القصبةَ التي نبتتُ

على ضفافكِ

لتصير نايًا عندما يدركها الحزن.

\*

سنعبُرُ المحنةَ

حتى لو ضاقتِ الدروبُ أمامنا

وتعالَتِ الجبالُ، وانحدرتُ سيولٌ من الأعالي

فلا تُثقلِي رأسكِ بالندمِ على شيءٍ.

\*

ألسنا من عائلةٍ واحدةٍ:

نحنُ، والطيورُ المهاجرة

والأشجارُ

وبناتُ أوى

والسلاحفُ ...

وحتى الضباع؟

## مرتزقة

بضعه رجال مسلحين  
لوثوا هواء المدينة  
وروعوا أشجارها ...  
لا أحد يعلم من أين جاءوا  
ومن أين لهم تلك البنادق  
التي تلمع حتى في الظلام  
ربما يكونون من فضلات الليل  
فهم لا يشبهوننا أبداً  
وليس في أصواتهم طراوة لكنتنا  
لكنهم يحفظون وجوهنا  
وأسماءنا  
ويعرفون الشتائم التي نُسرُّها  
حين يمرون مسرعين  
في الدروب الضيقة بين البيوت  
تاركين ظلالاً كثيفة على الجدران  
والأبواب التي تنُّ  
من قسوة رفساتهم.

## أبواب

في البداية  
لم تكن فكرة الأبواب سيئةً  
ولا قاسيةً، كما هي الآن  
كان يمكن للحكايات أن تدخل بيضاء  
وتخرج بيضاء  
والوشايات كذلك  
وصيحات العراك التي تنهك الليل  
وغالباً ما تنتهي  
دون أن تثير حفيظة المغلوبين.  
كانت الحياة خفيفةً  
مثل دخان المدافئ الطينية  
في الشتاء  
أو مثل أرواحٍ شريرةٍ  
تعودت أن تقيم معنا  
ولا تفعل ما يعكّر علينا نهاراتنا  
لكنها في الليالي التي تخلو من النجوم  
ينتأجها ملل البطالة  
فتعبت بنومنا  
وأسرتنا

كأن تستبدل نساءنا بأخرياتٍ لا نعرفهن  
أو أن تُعيدَ إلينا أحلاماً مرحةً  
من حياةٍ سابقةٍ  
في هيئة كوابيسٍ، أحياناً.

## فاصلٌ شرقي

حين رفعتُ رأسيَ أوَّلَ مرّةٍ  
كانت السماءُ واطئةً  
وسقفُ البيتِ واطئاً  
حتى أنني كدتُ ألمسُ الحقيقةَ  
بأطرافِ أصابعي  
دون حاجةٍ إلى النهوض من السرير  
وكنتُ أهربُ من العائلة  
كلما لاح لي ضوءٌ من ثغرةٍ في اللغة  
أو سمعتُ هاتفاً ينادي من خلال القصب:  
إذهب إلى المياه  
إذهب إلى مربط الشمس  
إذهب إلى الرمال  
حيث يبدو الظلامُ صفحةً بيضاء  
صالحةً للكتابة  
وللأحلام  
ولمزيدٍ من المصاييح ...

\*

وكنتُ أذهبُ حافياً  
على سجّادة من حصيٍّ ناعم

فأصادفُ بين الصحراءِ والشاطئِ  
شعراءَ ينتظرون الرجوعَ إلى الجنّةِ.

\*

على المنحدراتِ الصخريةِ  
كان الفلاحون ينتظرون المطرَ القادم  
بينما راياتُ خضراءُ وسوداءُ  
في أسفلِ الوادي  
تحجبُ الضوءَ عن الحقولِ.

\*

بثيابِ رثّةِ  
وأبائٍ غيبتهم الحروبُ  
كنا نقفُ أمام الأعيادِ  
نحن أطفالُ المسرّاتِ المبتورةِ.

\*

مساحاتٌ من الرغبةِ  
تضيقُ وتتسعُ  
مثل فكرةٍ جديدةٍ ما زالت غامضةً  
لكنّها يمكن أن تكون شجرةً  
يوماً ما.

## حريق

كان الحريقُ قد أتى على المنزل  
ولحسن الحظّ، لم يُصَبَّ أحدٌ بأذى  
-هكذا يقول الشهود-

لكنني بحثتُ عن قارورةِ العطر  
هديتكِ التي أخفيتُها بين الملابس  
بحثتُ عن صورنا

ونحن نراوغ الحزنَ من يومٍ لآخر  
عن الساعةِ التي تعطلتُ قبل سفركِ  
بيومٍ واحدٍ

حتى صوتُ خطواتكِ الأخيرة  
لم يبقَ منه شيءٌ ...

الآن، إذن

يمكن أن أقول

بأنني صرتُ وحيداً.

## البرزخ

منذ أن نجحنا بالهروب من الكارثة  
وأنا أقولُ لك:

ربما نحن، يا صاحبي

نركضُ في الإتجاهِ الخاطئِ،

فالذين هربوا قبلنا

لم يخلّفوا أثراً من دمٍ في الطريق

ولا رائحةً من فوزٍ مزعوم،

والذين سرّبوا لنا الخارطةَ

لم نقرأُ سجلَّ خياناتهم

في تراثِ الذين انتهوا قبلنا..

فهلاً أقمنا هنا

في الحقولِ المحروقةِ

حتى يدركنا شتاءٌ تأخّر عن القافلةِ

فيملاً الآبارَ المهجورةَ.

عندها يمكن أن يصير أحدنا دلوّاً

والآخرُ فزاعةً

تلوّحُ للهاربين

كي يقيموا معنا

في البرزخ.

## إدراك ما فات

سأعودُ مرّةً أخرى إلى الشوارع،  
ولكنّ،

ليس كمتسكعٍ هذه المرّة  
فلقد تذكرتُ أن هناك أفكاراً عظيمةً  
تساقطتُ منا

عندما كنا نعبُرُ من رصيفٍ إلى آخر  
أو نخرُجُ مسرعين من حانّةٍ أو مقهى  
لندركَ ما فاتنا من إجاباتٍ

على أسئلةٍ  
كانت هي الإخري  
حائرةً مثلنا.

## قوس قزح أسود

كان ذلك في صيفٍ بعيدٍ  
لكني أتذكره جيداً  
كانت أمك تخط لك فستاناً أحمر  
وأنت تجلسين على الأرض ...  
على الأرض تجلسين  
واجمةً  
كأنك لا تسمعين صوت الماكنة  
بينما عينك ترقبان النهار الآفل  
في النافذة  
والماكنة تدور  
أنت لم تري أباك منذ عامين  
لكن صوته مازال يملأ قلبك ...  
منذ عامين لم تري أباك  
وغداً عيدٌ  
فماذا لو لبست أحمر أو أخضر  
كان يقول: لا تلبسي الأسود أبداً  
فأنت صغيرة  
ومازلت طريةً مثل طين الحقول  
سنزرعُ فيك فرحاً لا يذبل

وقوسَ قزحٍ من أحلام  
وأمنياتٍ صغيراتٍ ...  
صوتُهُ ما يزالُ في الغرفةِ  
والمكانةُ تدور  
وصورتُهُ على الجدار  
بأربعةِ أشرطةٍ سود  
على ذراعهِ الأيسر  
مثل قوسِ قزحٍ  
أسود.

## قناديلُ العَجَرِ

ليس هناك من سببٍ  
يجعل الأضواء تنطفئُ  
في ذلك الكوخ الوحيد في الوادي  
حيث تعيشُ عائلةٌ  
خَلَفَتْها قافلةٌ من العَجَرِ  
مرّت من هنا قبيل الحرب ...

\*

كان الطريقُ الترابي  
يمنحُ الصبايا فرصةً أن يظهرن فجأةً  
كما لو كُنَّ ظلالاً  
لنباتاتِ عبّاد الشمس  
التي تملأُ الواديَ نهايةَ الربيع،  
لا أحدٌ يعرفُ عددهن بالضبط.  
أحياناً يدُرن على البيوت  
يعرضن مصوغاتٍ فضيئةً  
وعطوراً  
ووصفاتٍ سحريةً لطرد النحس  
لكتّهنّ لا يفصحن عن أسمائهنّ  
ولا أعمارهنّ التي يقال إنّها  
لا تتغير ...

أما الرجالُ  
فلا يظهرون أبداً  
لعلهم يحرسون القناديل  
التي لا تنطفئ  
طوال الليل.

\*

نحن أيضاً  
عرفنا كيف نتوهج  
في تلك الليالي الدافئة  
على صوتِ ربابةٍ يأتي من هناك  
ومغنيّةٍ تردّدُ لحناً من زمنٍ آخر  
لتنفتحَ الشبابيكُ على نجوم  
تضيءُ أحلاماً صغيرةً  
تعودنا أن نخبئها  
في أكثر الأماكنِ برودةً  
من نومنا الموحش.

\*

ليس هناك من سببٍ واحد  
يجعلُ النجومَ تخبو  
في سماءِ الوادي ...  
لكتّما الحرب.

## إبنة الملك

من الصعب أن تُقدِّر عمرها الآن.

وردةُ ابنةُ الملك

التي كانت تركضُ على العشب

دون أن يتكسّر

وتعرفُها العصافيرُ، كأنها شجرةٌ

أو أغنيةٌ بجناحين من أحلام ودلال

وردةُ التي كانت أصغر مني

صارت تكبرني بسنين كثيرة

لكن

لم يعد أحدٌ يهتم بذلك.

\*

لم يكن أبوها غير مقامر بائس

توهّم مرّةً أنّه صار ملكاً

بعد أن فاز بجائزةٍ كبيرة

ثم تردّى بعدها بخساراتٍ متتابعة

إلى أن باع وردةً لمقامر وسخ

ومازال من وقتٍ لآخر يصيحُ

"أنا الملك"

\*

وردةً التي كانت بستاناً،  
يبستُ أشجارها.  
وردةً التي كانت معبداً،  
تمرّغتُ آلهتها في التراب.  
وردةً التي تكسرتُ قلوبُ كثيرة  
عند قدمها  
لا تستطيعُ الآن عبور الشارع  
إلا على عكاز خيبتنا المزمّنة.  
ولا أحدٌ منا يشعر بالعار  
ولا بالأسف.

## من ملفاتِ بلدةِ آمنّةٍ

هكذا

يبدأ الأمرُ بسيطاً

كأنّ يمرّ بك رجلٌ غريبٌ

وأنتَ تجلسُ في ظلِّ حائطٍ

في بلدةِ آمنّةٍ

فتدعوهُ إلى خبزٍ ولَبَنٍ

ويدعوكَ إلى سماعِ بيتينِ من الشعرِ

وشطراً من قصةِ فشلهِ في ترميمِ حائطٍ

يشبهُ هذا الذي تستظلُّ به.

لكن شيئاً يتغيرُ في المشهدِ

لا أحدٌ يعرفُ كيف ...

الغريبُ،

لم يكن وحده

كان هناك من يراقبهُ من بعيدٍ ...

ثم يدلى شهودٌ قريبون منك

بانّ الغريبَ أسرَّ بأذنك أمراً

ودسَّ في جيبك أوراقاً صُفراً

وأنتَ ودّعتَهُ بكيسِ ثَقيلِ

وأنّ شعاراتٍ مريبةً

كانت مكتوبةً على الحائط  
ما زالت صورُها  
محفوظةً في ملف التحقيق.

## المحتويات

١	تساؤل
٢	الوجه الثاني
٣	المغقلون
٤	حديثُ الطين
٥	عندما تكونُ وحدكُ
٧	نافذةٌ عالية
٩	الأيامُ الأخيرة
١١	مريمُ ترسم
١٣	ما تبقى من اللعبة
١٥	رسائلُ القديمة
١٧	أمنيةٌ ثانية
١٩	بدايةُ الخريف
٢١	إلتباس
٢٣	نهايةٌ سعيدةٌ
٢٥	كيف أدلّك على الطريق؟
٢٧	عامٌ آخر
٢٩	فراديسُ مفقودة
٣١	رجلٌ سعيد
٣٣	من صندوق الغوايات

- ٣٥ ..... سوءُ الحظ
- ٣٦ ..... قراءةُ بالأصابع
- ٣٧ ..... لا تبحثُ عنها بعيداً
- ٣٩ ..... موطنُ الملاك
- ٤١ ..... يحدثُ معي دائماً
- ٤٣ ..... أبي يحرقُ ما أكتب
- ٤٤ ..... لماذا تأخرت؟
- ٤٦ ..... طبيعياً جداً
- ٤٨ ..... هزيمة
- ٥٠ ..... من سيرة الإقحوان القصيرة
- ٥٣ ..... خيبة
- ٥٤ ..... طعمُ الموت
- ٥٦ ..... محاولةٌ لاستدراج الربيع
- ٥٨ ..... خارج المضمار
- ٥٩ ..... حلم
- ٦٠ ..... حارسُ الغابة
- ٦٢ ..... رسالتهم
- ٦٣ ..... على الطريق السريع
- ٦٥ ..... أن لي أن أستريح
- ٦٧ ..... المشهدُ ذاته يتكرر
- ٦٩ ..... أخيراً

- ٧١ ..... في ذكرى صديقي الموسيقي
- ٧٣ ..... حملٌ ثقيل
- ٧٥ ..... الحصان
- ٧٧ ..... عائلةٌ واحدة
- ٧٩ ..... مرتزقة
- ٨٠ ..... أبواب
- ٨٢ ..... فاصلٌ شرقي
- ٨٤ ..... حريق
- ٨٥ ..... البرنخ
- ٨٦ ..... إدراك ما فات
- ٨٧ ..... قوسٌ قزحٍ أسود
- ٨٩ ..... قناديلُ العَجَر
- ٩١ ..... إبنة الملك
- ٩٣ ..... من ملقاتِ بلدةٍ آمنة

## صدر للشاعر

١. ترفيعُ الأمل. مومنت للنشر، لندن ٢٠١٦
٢. مثل غيمةٍ بيضاء. دار تموز، دمشق ٢٠١٩

بلغةٍ بسيطةٍ  
يفهمها طفلٌ  
يركضُ حافياً  
في دروبِ القريةِ  
من أوّلِ المطرِ  
الى آخره  
سأحدّثك  
عن الطين

سماري للتصميم

SAMARIIBRAHIMABD@GMAIL.COM

فريدان من الازمن